تاريخنا وحضارتنا... من التفسيرات الإسقاطية إلى التوظيف الحضارى

- بعيدًا عن الإسقاطات والتفسيرات التحريفية لتاريخنا . . . يجب أن نلتفت إلى ضرورة توظيف تاريخنا الحضارى فى خدمة واقعنا واستشرافاتنا المستقبلية . . .

- إننا لن نعيش فى (جنة) الماضى غافلين عن المستقبل ؛ بل سندرس كل تاريخنا البشرى - بإيجابياته وسلبياته - . . . لنستفيد من تجارب الإيجاب والسلب معًا . . . وهذا هو المنهج القرآنى فى فقه التاريخ . . . وكل الأمم الناهضة من حولنا تجعل من تاريخها ذاكرة تستلهمها . . . فلسنا بدعًا فى ذلك !!

ومنذ وعى الإنسان معانى التاريخ والحضارة والحكمة (الفلسفية)، وهو يوجه الوقائع التاريخية لخدمة عقائده وأفكاره، ويفسرها تفسيرًا يحدد لها إطار مستقبله فى ضوء الثوابت والخلفيات ؛ التى ورثها وآمن بها وترسبت فى وعيه التاريخى .

- وشيئًا فشيئًا حاول الإنسان غربلة بعض أفكاره، والوصول إلى قدر من الموضوعية، يتلاءم مع المنطق والعقل، وفى أحيان كثيرة اضطر إلى تفسير أفكاره وعقائده تفسيرًا يحاول أن ينسجم مع المنطق، ومع الموروث والمعتقد فى نسيج واحد!!

- ومهما وضع اليهود والنصارى من لافتات علمية وموضوعية، فمن المؤكد أنهم قد تأثروا بعقائدهم تأثرًا كبيرًا ومباشرًا فى تفسيرهم للتاريخ وتقسيمهم لمراحله .

- وقد بدأ النصارى تاريخهم وتنظيرهم بما بدأت به التوراة، فرجعوا إلى (الجنة) التى عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطهما على الأرض، وقسموا التاريخ إلى قسمين رئيسين هما:

- المرحلة التى سبقت خروج آدم من الجنة، والمرحلة التى أعقبت ذلك الخروج!! وبالمثل فإن اليهود قد استخدموا وقائع طردهم من القدس؛ أساسًا لتاريخهم وترتيبهم الزمنى للأحداث.

- أما الإغريق فأتوا بفكرة مماثلة، وهى فكرة اضمحلالهم بعد أن كانوا فى عصر ذهبى، وقسم أحدهم عصور التاريخ إلى خمسة أقسام هى: الذهبى، والفضى، والبرونزى، وعصر الأبطال، والعصر الحديدى. أما الآباء المسيحيون الأول فقد جعلوا العصر الذهبى قرينًا بالعصر الذى عاش فيه الإنسان فى الجنة، ثم ما تبعه من وقوع الخطيئة[1]...

- وجاء مؤرخو العصور الوسطى (الأوروبية) فتأثروا بهذه التقسيمات، وصاغوها صياغات أخرى، واعتبروا العصر الوسيط استمرارًا للإمبراطورية الرومانية، واعتبر المؤرخ (بلوندوس) (١٤٦٣م) أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوروبا الغربية عن روما، ثم جاء المؤرخ الهولندى (كرستوف كيلر) بتقسيم عصور التاريخ إلى أقسامه التقليدية الثلاثة المشبعة بالروح الكنسية؛ وهى التاريخ القديم الذى ينتهى بعصر قسطنطين العظيم، والتاريخ الوسيط الذى ينتهى بسقوط القسطنطينية سنة (١٤٥٣م)، ثم التاريخ الحديث من سنة (١٤٥٣م) فصاعدا[2].

- وكان ظهور «مارتن لوثر» عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ؛ بل إن حركة الإصلاح الدينى بقيادة (كالفن) و(لوثر) أعطت الجهد البشرى فى تفسير

---

(١) هارى المربانز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج ١/ ٣٢، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (١٩٨٤م).

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٣.

التاريخ تقديراً أقل مما أعطته له الكنيسة فى سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هى صاحبة المقام الأكبر والأول فى مقام البحث التاريخى؛ بل إن التاريخ العالمى صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان [1].

ـ ومع نهاية العصور الوسطى المسيحية، وبداية عصر الكشوفات الجغرافية، وخروج الأوروبيين فى حركتهم التوسعية الاستعمارية، وانتشارهم فى البحار وعلى اليابسة، وتعرّفهم على الكرة الأرضية، ومحاولتهم السيطرة عليها لحسابهم الخاص ـ دون نظر إلى الحضارة الإنسانية العامة ومصلحة البشر ـ . . . فى هذا الوقت نفسه الذى ذهب فيه (ماجلان وكولومبس وفاسكو دى جاما) يكتشفون العالم، وكان هناك آخرون من أمثال (برونوكوبر ينكس وجاليليو وكبلر ونيوتن)؛ يكتشفون خصائص النظام الكونى، وحركة الكواكب، واستطاع كل من (بيكون وديكارت وجون لوك) أن ينظموا مغزى الاكتشافات العالمية فى فكر فلسفى مستقيم . . . فى هذا الوقت ظهر مؤرخون يحاولون أن يقدموا تفسيراً اجتماعيّا، يتساوق مع الاكتشافات الجغرافية الكونية، وتألقت فكرة (تطور المجتمع) تطوراً منتظمًا، شأنه فى ذلك شأن الطبيعة، وكان أبطال هذا التوظيف توظيفًا يتساوق مع الاكتشافات الأوروبية هم: (فيكو وهيوم وفولتير وكانط وجودوين وكندورسيه).

ـ وقد ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية ـ وكذلك ردّ فعل الفلسفة الاجتماعية ـ على كتابات التاريخ فى كتابات المدرسة العقلانية للمؤرخين فى القرن الثامن عشر؛ وأهم ما جاءت به هذه المدرسة هو اتجاهها العام نحو توسيع التاريخ، بحيث يتعدّى نطاق الكنيسة والدولة ويشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضارة فى أوسع معانيها [2].

---

(١) المرجع السابق ص: ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق ١/ ٢١٠ ـ ٢١٢ بتصرف.

ـ ولم تنج فلسفة التاريخ من التوظيف، فهى مثل منهج البحث التاريخى تعرضت منذ نشأتها للتوجيه الفكرى والقومى والعقائدى، فالمؤرخون المسيحيون ـ بدءاً من (إيزيبوس) حتى (بوسويه) ـ كانت لهم فلسفة تاريخية قائمة على المسيحية، وكان (فيكو) يمثل المرحلة الرومانسية فى كثير من النواحى، ولا سيما فكرته عن التغيرات التى تطرأ على الروح الاجتماعية، وفكرته عن يد الله فى صنع أحداث التاريخ، وكان يرى أن التقدم يتم على شكل دائرى حلزونى، وقد قسم مراحل التطور التاريخى إلى ثلاث مراحل رئيسة وهى : الإلهية والبطولية والإنسانية[1].

أما المدرسة الألمانية وعلى رأسها (هرد، وعما نويل كانط، وفيخته)، فقد ظهر واضحًا إيمانها بالعنصر الألمانى، وبالواقعية التى يمتاز بها هذا العنصر، وبالحصيلة الديناميكية للدوافع الشخصية، ونتاج العمل والتزاوج بين الظروف الخارجية والروح الداخلية، وقد قال (فيخته) بصراحة فى كتابه (رسائل إلى الأمة الألمانية) (سنة ١٨٠٧م) : «إن الأمل فى المستقبل معقود على الشعوب الألمانية، فهذه الشعوب مكونة من عنصر نقى، غير مختلط، له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة»[2].

ولئن كانت هناك روابط مشتركة باعتبار عوامل التأثير والتأثر بين البلاد الأوروبية ذات التفاعل الحضارى المتقارب، إلا أن التوظيف القومى والوطنى والمذهبى كان واضحًا فى كل هذه المدارس، وحتى عندما جاءت الفلسفة المادية الماركسية، فإنها قامت بتوظيف التاريخ وفلسفته للفكرة الأيديولوجية المسبقة، وأرغمت الحقائق التاريخية على أن تكون فى خدمة الطبقة العاملة والصراع الطبقى، وسيادة طبقة البروليتاريا، وسقوط الرأسمالية أمام معاول الشيوعية، كما وظَّفته لخدمة الحرب على كل الأديان، وإعلاء راية الإلحاد، ثم جاء أرنولد توينبى ليقدم تفسيراً أكثر (تفاؤلية) و (لاهوتية)؛ يواجه به التفسير المادى، فكان

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٢٦، ٢٦٧، ٢٦٨، بتصرف.
(٢) المكان السابق.

تاريخه سلاحًا فى يد الكتلة الغربية الليبرالية واجهت به فى أشد ساعات المحنة انتشار الفلسفة المادية الماركسية، التى خضع لها ذات يوم مئات الملايين من البشر.

أما (أزوالد شبنجلر) الذى يظنه البعض أكثر حيادًا بالنسبة لآرائه فى فلسفة التاريخ؛ حيث أعلن (اضمحلال الغرب، وسقوط الحضارة الغربية)، وأظهر تشاؤمه من المستقبل، وذكر أن الحضارة تمر بدورة حلزونية رباعية؛ هى الربيع والصيف والخريف والشتاء، وأكد أن الحضارة الأوروبية تمر الآن بشتائها القاسى!!

ـ ومع ذلك كان (شبنجلر) أوروبيًا مخلصًا فى الحقيقة، لكن إخلاصه ـ وهو يوظف فلسفة التاريخ لحضارته ـ كان مثل توينبى... إنه إخلاص الطبيب الصادق للمريض فى مرحلة لا تحتمل الحلول العاطفية!!

وبعد شبنجلر سار فلاسفة آخرون أوروبيون على المنهج نفسه فى توظيف التاريخ وتفسيره لخدمة الحضارة الأوروبية والرؤية النصرانية أو العلمانية للتاريخ!!

* * *

وهكذا، ومن خلال هذا العرض، يتجلى لنا أنه منذ خمسة قرون ـ على الأقل ـ والبحث عن المنهج التاريخى الأصلح لكتابة التاريخ الإنسانى وفلسفة التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين فى العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا... وبالطبع ليس لنا فى هذا المقام أن نتجاهل دور العلامة عبد الرحمن بن خلدون فى إيقاظ هذا الوعى التاريخى على المستوى العالمى كله.

ويعد العالمُ الإسلامى ـ مع ذلك وللأسف ـ نشازًا فى هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخى لا يهتم ـ إلا فى القليل ـ بقضيتى منهج البحث التاريخى وفلسفة التاريخ، فضلاً على التوظيف لتجربتنا الحضارية فى مراجعة مشكلات الواقع وأعباء المستقبل.

والنظر إلى قائمة الطروحات العلمية التى قدمت فى جامعات العالم الإسلامى فى أقسام التاريخ والحضارة، بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين يُؤكد هذه الحقيقة !!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق؛ بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدى الفكرى بيننا وبين العالم الأوروبى؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه، فضلاً على عبثية هذه المقولة فى ظل الأساليب الحضارية المعاصرة؛ فإنها أيضًا مقولة لا تخدمنا حتى ولو نجحنا فى تطبيقها !!

إننا لا بد أن نبحث فى بنائنا الداخلى، وفى تطوير كياننا، وفى البحث عن وسائل القوة فى داخلنا ومن خارجنا، وفى فقه سنن الله الكونية والاجتماعية فى التطور والبقاء، ولا سبيل لبقائنا فى هذا العالم إلا عن هذا الطريق.

إنّ تشريحًا قويًا يجب أن نقوم به - بإخلاص وجرأة - لتجربتنا فى التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا فى الاعتراف بالحقيقة كما هى، وفى تقويم هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التى نؤمن بأنها (المطلق)، و(المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية.

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنًا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، وذلك أن المنهج العلمى لكتابة التاريخ يُحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلاً) وقبولها دراية (عقلاً) [1].

وقد أصبح (فقه البيئة) الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة، والحكم عليها منذ عصر ابن خلدون، ومهما كان لتفسير التاريخ من كيان مستقل؛ فإن أجزاء كثيرة منه على الأقل - فى معطياته الأولى - ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها. . . [2].

---

(١) يضرب الدكتور الجابرى مثلاً يستدل على استحالة إخضاع القرآن للدراسة التأويلية التطويرية لثبوت نسبته لله بخلاف غيره من الكتب؛ ذلك أن الصحابة المتقاتلين (جميعًا) فى صفين أجمعوا على الخضوع للمصحف الذى رفعه أنصار معاوية، فنسبة القرآن لله لا يرقى إليها شك.

(٢) لكل عصر مناخه (أخلاقياته) وعاداته السائدة، فجيل كجيل الصحابة (رضوان الله عليهم) لا يمكن أن يتواطئوا على نص للرسول (عليه الصلاة والسلام)، وهم الذين كانوا يبيعون الدنيا من أجل الدفاع عن دين الله، وهم يعلمون أن النار مصير من يكذب على الرسول ﷺ (!!).

إن هذه مسلَّمة أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلاً !!

وفى ضوء هذا البحث الإنسانى الدؤوب عن تفسير إنسانى موضوعى للتاريخ؛ يتبدَّى لنا أنه من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولاً إلى بعض المفاتيح ـ وليس كل المفاتيح ـ لحركة التاريخ والكون.

وفى الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا ـ إنصافًا لرسالتهم وحضارتهم ـ بجهودهم فى مجال الوصول إلى فلسفة كونية وتاريخية أصيلة، تقوم على ركائز التصور الإسلامى الأساسى...

ولعلَّ أهم ما يميز الرؤية الإسلامية للتاريخ ويوجبها؛ أن لها ثوابت تتصل بالقوانين والسنن الكونية التى لا تتغير، وتتصل بالفطرة الإنسانية المركوزة فى الإنسان، والتى لا تتغير هى كذلك، وإن اختلفت وسائل التعبير عنها... ويعدّ تشويه الفطرة اعتداءً على (إنسانية الإنسان)...

وأهم فرق بين التصور الإسلامى والتصورات الوضعية التى لا ترى علمية تفسير التاريخ؛ أن الإسلام يؤمن بثوابت فطرية مركوزة فى الإنسان لا تتغير... وهؤلاء يرون أن الإنسان يتطور فى بنائه الأساسى العضوى والنفسى والقيمى...

ويرى التصور الإسلامى أن الجانب المعرفى والفكرى يتطور فى الإنسان؛ لكن ذلك أيضًا يحتاج إلى ضوابط وعناصر تكمله؛ فثمة معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها ـ نقلاً ـ لا عقلاً، وهو ـ بطبيعته ذات الطاقة المحدودة ـ عاجز عن إدراك تفصيلاتها بعقله... وثمة مسلمات فى الجانب المعرفى الكونى والاجتماعى يجب التسليم بها...

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعلم العقل فى مساحة واسعة تنتظم تسخير الكون، ومجالات العلوم والفنون والآداب، وفقه النفس الإنسانية والطاقات الإنسانية المختلفة، وفى استكشاف عظمة الله من خلال تدبر آياته فى الكون والنفس، وبالتالى استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية.

إن قراءة تاريخنا، وتاريخ الإنسانية بكل معطياته وشرائحه عملية ضرورية لكتابته كتابة موضوعية . . .

وقراءة التاريخ لا تَعْنى قراءة الجوانب السياسية، وحياة الحكام، وأخبار الوقائع والحروب؛ فتلك قراءة قد استهلكت، وأخذت أكثر من حجمها، وامتدت على حساب غيرها، وأعمتنا عن قراءة تاريخنا وتاريخ الإنسانية الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . . . ومن شأن قراءة عاجزة كهذه ألا تصل بنا إلى اكتشاف السنن الفاعلة والعوامل المتحركة .

ـ إن تاريخنا ليس فردًا فى هذا المجال . . . فمعظم تواريخ العالم ـ إن لم يكن كلها ـ يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها، أباطرة كانوا أو قياصرة أو أكاسرة أو ملوكًا [1] . . .

ـ فكيف يُصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضارية، مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها . . . ؟ !

ـ وإن عظمة كثير من الحضارات ـ وعلى رأسها الحضارة الإسلامية ـ أنها بقيت مصونة الجوهر، بالرغم من الفساد الذى يجلبه هؤلاء ! !

ـ وأخيرًا . . . فإننا عندما نتجه ـ عمليًا وبصورة جماعية ـ للبحث فى أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنا التاريخية، وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه والأدب والرجال والطبقات، باذلين معظم الجهد فى التعرف على حياتنا الحضارية؛ التى تقوم على قضايا العقيدة والفكر والثقافة والعلم ـ أولاً ـ وعلى النشاط الاجتماعى ـ ثانيًا ـ والنشاط السياسى والعسكرى ـ ثالثًا ـ ! ! !

ـ ومن الواجب أن نصهر كل هذه الجوانب أو العناصر فى بوتقة واحدة؛ لأن الفعل الحضارى يتأثر بالبيئة كلها، مراعين ـ فى الوقت نفسه ـ النسبة المحدَّدة لكل

---

(١) ومع قولنا هذا فنحن لا نسلِّم بالمقولات الشائعة الباطلة عن كثير من حكام الخلافات والدول الإسلامية، وندعو إلى دراستهم دراسة موضوعية منصفة . . . وسوف نكتشف جديدًا وعجيبًا ! ! !

نشاط، وأثره فى الحضارة، ومراعين - أيضًا - ترتيب العناصر وفق أولوياتها والنسب المحددة لها.

إن المنهج الصحيح للتعرف على المجتمع الإسلامى، يقتضى التعرف على الأسس الفكرية، والضوابط الأخلاقية، والنظم المالية والقضائية والتجارية والسياسية، وأهم المؤسسات وعلى رأسها المسجد، ودور العلم ومقرراتها ومناهجها والقيم الموجهة لها، ومقاصدها التربوية... ومدى فاعلية كل ذلك في حركة الحضارة.

كما يقتضى رصد حركة أو سلوك الشعب فى الأسواق، وفى الزراعة والتجارة والصناعة، وفى حركة الجهاد المنظم، أو التطوعى (المطوعة والمرابطين)... ويقتضى أيضًا مراقبة نوع حياتهم فى المواسم المختلفة، عبادية أو ترويحية عبادية، مثل حياتهم فى رمضان، والتزامهم بصيامه، وقيام ليله، ومثل سلوكهم فى موسم الحج إن حجوا، أو تفاعلهم معه إذا لم يحجوا، وسلوكهم فى الأعياد الإسلامية: يوم الجمعة، وعيد الفطر، وعيد الأضحى... ومناسبات الزواج، والولادة (العقيقة)، والأضاحى... وغيرها

* * *